اللاتينية التى أسست على انقاض امبراطورية روما صارت تقوى وتنتظم امورها

ويقول المؤرخون الذين يريدون أن يغمطوا فضل العرب على نهضة هذه الدول : ان نهضة الاحياء ترجع الى النمو الداخلى الطبعى الذى نشأ فى هذه الدول بسبب نمو مدارك أفرادها نموا طبعياً كان لا محالة واقعا وفى قولهم شىء من الصواب ولكنهم يلفتون أبصارهم عن العوامل الخارجية التى سببت ذلك النمو والتى أثرت فى الامم الأوربية الحديثة من ناحية العرب ومن ناحية غيرهم

فضل العرب على العلوم الاوربية وآداب اللغات الاوربية

يقول بعض المؤرخين ان سبب رقى العلوم فى أوربا ما وصل الى أيدى الاوربيين عن اللغة الاغريقية القديمة واللاتينية ولا سيما الاغريقية من طريق البوزنطيين خاصة بعد سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك وفرار كثير من علماء الاغريق الى غرب أوربا ويقول المؤرخون ان ما وصل إلى أيدى الاوربيين عن اللغة العربية من الكتب القديمة كمؤلفات ارسطاطاليس وغيره إنما كان قبل النهضة فى القرون الوسطى حينما كان الشائع فى مدارس أوربا وجامعاتها نوعا من التعليم يشبه التعليم فى الجامع الازهر قبل إصلاحه ويقولون : إن الغرض من

هذا التعليم كان تعليم الشبان المنطق لأجل الجدل فى الدين وكان المتعلمون يقضون أكثر أوقات فراغهم فى مجادلات عقيمة فى علم الكلام وما وراء الطبيعة والالهيات وكل هذا صحيح ولكن نسى هؤلاء المؤرخون أموراً أهمها : —

أولا (منهج التعليم فى القرون الوسطى) ان منهج التعليم هذ الذى أخذته جامعات أوربا عن العرب وكتبهم وما نقلوه من مؤلفات الأقدمين إلى العربية ثم نقل الى اللغات الأوربية قد أفاد فى تكوين العقل الأوربى فى دور من ادوار تكوينه ونموه وهذا التكوين وهذا النمو جعلا بعض المؤرخين يقول . إن نهضة الاحياء ترجع فى الحقيقة إلى نمو العقل الأوربى الذى كان لامحالة واقعا حتى ولو أنه لم تكن هناك عوامل خارجة . وقد تناسوا أن هذا النمو نفسه إنما كان ناشئا عن التأثر بعوامل ومهيئات كثيرة من أهمها عامل الحضارة العربية وأثرها فى الامم المجاورة

(ثانياً) (البحث والتفكير والنقد) . إن حرية التفكير التى هى ألزم لازم للحضارة ولرقى المعارف واستنباط الحقائق كانت أكثر توفرا فى كتب العرب وقد اعترف القساوسة بذلك ورأوا فى كتب العرب خطرا على سلطانهم من أجل أنها جعلت تحرر العقول من القيود التى قيد القسيسون بها المفكرين فصودرت كتب العرب وأحرقت وصار القسوس يعاقبون من يقتنيها ولكنهم فشلوا فى محاربة العلوم العربية ولم يوفقوا إلى محو أثرها بل إن أثرها صار يعظم فى كل مظهر

من مظاهر نهضة الاحياء وفى محاربة القساوسة لكتب العرب حتى ما كان منها بعيدا عن الجدل الدينى دليل واضح على أن مبادىء حرية البحث والتفكير إنما غرسها العرب فى نفوس الأوربيين

(ثالثا) (مبادىء العلوم الحديثة) ان الاوربيين مدينون للعرب بأشياء أخرى علاوة على المنهج المدرسى (السولاستيكى) الذى كان عماده المنطق وعلم الكلام والالهيات فان أهل الغرب مدينون للعرب بما أخذوه عنهم من حقائق علم الطب والفلك والكيمياء والجبر والهندسة الخ ولا نريد ان نطيل فهذا أمر يطول ذكره ومن أراد الكفاية فليقرأ كتاب (نمو الطفل الأوربى) تأليف الاستاذ دريبر وكتاب (الفكر العربى ومكانته فى التاريخ) تأليف الاستاذ أوليرى وغير هذين من الكتب الحديثة

يقول أعداء العرب إن العرب طالما شغلوا بالبحث عن حجر الفيلسوف واكسير الحياة فالهاهم عن متابعة ما استنبطوه من الحقائق وقد تابعهم معاصروهم من الاوربيين فى البحث عن هذه الاشياء فشغلوا أيضا عن متابعة البحث فى الحقائق وهذا نقد فيه شىء من الصواب ولكنه ليس بحجة لانكار فضل العرب فى استنباط ما استنبطوه من الحقائق وما عرفوه من خصائص الاشياء حتى فى أثناء بحثهم عن تلك المستحيلات فهم الذين علموا أطبة أوربا حقائق علم التشريح يوم كان القساوسة يحرمون على الاطبة فى أوربا تشريح الاجسام والعرب

هم الذين علموا الاوربيين خصائص المواد الكيميائية يوم كان الاوربيون كما يقول الاستاذ دوبير لا يعرفون من الأحماض الكيميائية غير الخل وكان العرب يعرفون عوارض الأمراض وطرق علاجها يوم كان الأوربيون يتداوون بالتعاويذ والرقى وغير ذلك أمور كثيرة استفادها الاوربيون وهى مذكورة فى كتب التاريخ التى بأيدى التلاميذ فلا فائدة من ذكرها

(رابعا) (نمو آداب اللغات الاوربية الحديثة ان فضل العرب على آداب اللغات الاوربية الحديثة وان كان أقل وضوحا من فضلهم على العلوم الأوربية فضل لا غبار عليه وهو فضل يمتد الى ما قبل نهضة الاحياء فيمتد الى عهد تكوين آداب اللغات الاوربية الحديثة فان المذهب (الرومانتيكى) الخيالى الذى نما فى عهد نمو اللغات الحديثة يختلف كل الاختلاف عن طريقة الاغريق والرومان وليس من الحق أن نقول ان الفضل للعرب وحدهم فى انتشار هذا المذهب فى أوربا فان المذهب (الرومانتيكى) فى الشعر والادب يماثله المذهب القوطى فى فن البناء وكلاهما أقرب الى الذوق التيوتونى وهناك عوامل أخرى كثيرة ليس هنا مكان ذكرها للدلالة على ان المذهب (الرومانتيكى) ليس من ابتكار العرب فى أوربا ولكن من الثابت أن الاسبان تأثروا بالطريقة العربية فى شعر الغزل والأغانى وما اليهما وتأثر بالطريقة الاسبانية الايطاليون ثم عنهم أخذها الاوربيون عامة ولكن يحسن ألا نبالغ فى إعظام أثر العرب من هذه الناحية لأن الامور التى ترجع إلى النفس

كالشعر ليس من السهل إثبات العوامل التى أثارتها ولا ن المذهب الرومانتيكى كما بينا كان أقرب الى ذوق التيوتون فهم كانوا يتبعونه ولو أنهم لم يخالطوا العرب ولأنه كانت هناك أسباب أخرى تدعو اليه منها الحروب التى أثارت الخيال وهيجت النفوس ومنها إحساس الدول الاوربية الحديثة بحياتها ونهضتها الجديدة وكل هذه الامور كانت تتطلب لامحالة طريقة فى أدب اللغة تطلق العنان للخيال والشعور اللذين قيدهما المذهب (الكلاسيكى) القديم بقيود فنية كثيرة

ولا مراء أيضا انه على الرغم من أوجه الخلاف التى بين المذهب الرومانتيكى الذى كان شائعا فى أوربا فى عصر النهضة وبين المذهب (الكلاسيكى) القديم الذى كتبت على وتيرته كتب الاقدمين فان الفضل الا كبر فى إحياء آداب اللغات الاوربية الحديثة يرجع إلى كتب الاقدمين وبخاصة الاغريق والرومان ولكن هذا لاينفى فضل العرب أيضا فى إحياء آداب اللغات الأوربية

وعندى أن ما عرفه الاوربيون من ترف العرب وإقبالهم على محاسن الحياة وأخذهم بهيئات الترف والنعيم من مصنوعات العرب ومزروعاتهم كل هذا زهد الاوربيين فى التقشف والتزهد والترهب وما وصل اليهما من أثر شعر العرب فى غزل الاسبان والايطاليين زادهم زهدا فى التقشف والترهب فانصرفوا إلى محاسن الحياة والاقبال عليها بعد الاعراض عنها فى القرون الوسطى وهذا أغراهم بقراءة كتب الاغريق الذين كان رأيهم فى الحياة أبعد الآراء عن تقشف الأوربيين فى القرون الوسطى وأقرب الآراء

من هذه الوجهة الى رأى العرب فى الاقبال على الحياة أيام عزهم ومجدهم كما هو ظاهر فى غزلهم وسائر آداب لغتهم فكان أثر العرب من المغريات التى أغرت الاوربيين بمطالعة آداب الاغريق

(خامسا) (الطباعة والورق) ان الرقى الذى حدث فى علوم الأوربيين ولغاتهم ما كان ليثمر تلك الثمار الكثيرة لولا الطباعة والورق أما الطباعة فى شكلها الحديث فلم تكن معروفة عند العرب ولكنهم كانوا يحفرون الحروف معكوسة على قطع من الخشب ثم يطلونها بالحبر ويلصقون الورق عليها ولكن هذه الطريقة لم تفد كل الفائدة لان القطع التى كانت تستخدم فى طبع كتاب ما كانت تستخدم فى طبع غيره لثبوت الحروف على أوجه الالواح ولم تكن الحروف المطبوعة تامة الوضوح ثم انتقلت هذه الطريقة إلى الاوربيين فحسنوها ثم جعلوا الحروف غير ثابتة أى منفصلة عن الألواح

وأهم من ذلك أن العرب نقلوا إلى الاوربيين صناعة الورق فاذا كان الفضل فى اختراع فن الطباعة الحديث يرجع الى الاوربيين فان الفضل فى تمكين الأوربيين من استثمار اختراعهم يرجع إلى العرب الذين نقلوا إليهم صناعة الورق وبذلك أمكن الأوربيين أن يبلغوا المبلغ الذى بلغوه اليوم من العرفان فان الورق مكن الاوربيين من الاستفادة من الطباعة حتى صارت الكتب فى أوربا تعد بالآلاف الآلاف بعدان كانت تعد بالعشرات وهذا خفض من ثمنها وسهل عليهم اقتناءها والفضل فى هذا كله يرجع الى العرب

(فضل العرب على التجارة والصناعة والزراعة)

انه لما سقطت دوله الرومان وانتشرت الفوضى فى أوربا اضمحلت تجارتها وصناعتها وزراعتها ولكن إنشاء دولة العرب الشاسعة الاطراف التى امتدت من السند إلى اسبانيا وصل بين الشرق والغرب فكان العرب ينقلون المتاجر من طرف الى طرف آخر من أطراف دولتهم الشاسعة فصاروا أعظم التجار فى العالم إلماما بالتجارة وما تتطلبه وراجت صناعة عمل السفن فى ثغورهم ونسجوا النسيج وصنعوا الصناعات فان الصناعات وقتئذ يوم أن كانت يدوية تؤدى على آلات خشبية كانت تقوم على طرق التجارة فكانت طرق التجارة والمدن التجارية هى التى تعين أماكن الصناعات أما اليوم فان الصناعات بالآلات الحديدية وتستلزم اما الفحم أو البترول او القوة المائية فهذه هى أهم الامور التى تعين أماكن الصناعة فى هذا العصر وبتعيينها اما كن الصناعة تعين اماكن التجارة ايضا اما فى عصر العرب فان دولتهم جعلت لهم ميزة تجارية وهذه الميزة التجارية جعلت لهم ميزة الصناعة وحتمهم على اتقان المصنوعات وترقية المزروعات حتى فاقوا أمم العالم وحتى صارت أوربا فى هذه الامور عالة عليهم وصارت عملة العرب هى واسطة التعامل حتى عند الاوربيين انفسهم ردحا من الزمن ولما صار الاوربيون يضربون العملة لأنفسهم حاكوا عملة العرب وانك لتجد فى دور الآثار الاوربية عملة قديمة من عملة الاوربيين على وجه منها علامة الصليب وعلى

الوجه الآخر (الله الواحد الأحد) وماشابه هذه العبارات وهذا يدل على أنهم كانوا احيانا يحاكون العرب محاكاة تسمى الآن (محاكاة عمياء)

ومن الأشياء التى أخذها الاوربيون عن العرب زراعة السكتان والأرز والتوت والليمون والبرتقال واللن والقطن وقصب السكر الخ كما اخذوا ايضا صناعة الاقمشة التيلية والقطنية والدمقس والحرير والقطيفة والمنسوجات الشفافة وصنع الجلود والبلور والزجاج والورق والسكر والحلوى والاشربة (راجع كتاب حضارة القرون الوسطى تأليف الاستاذ سينوبو) وكل هذه الاشياء لم تكن معروفة عند الاوربيين فأخذوها عن العرب واخذوا معها طرق صناعتها أوزراعتها فاستفادوا بما استنبطه العرب من طرق الصناعة والزراعة أو ما اقتبسه العرب من الامم الشرقية الاخرى وحسبك ان طرق الرى فى الاندلس كانت وقتئذ آية من آيات فن الزراعة فأصبحت الآن أثرا بعد عين

وكان الاوربيون يتبعون الشواطئ فى أسفارهم ثم أخذوا بيت الابرة والاسطرلاب عن العرب وحسنوهما ولامراء أن بيت الابرة صارت معينا كبيرا فى الملاحة ولعلها سبب من أسباب اقتحام المحيطات وكشف المكشوفات الاوربية الجليلة ولا يطعن فى صحة ذلك مايقوله الاستاذ سينوبو من أن البرتقال رغم معرفتهم بيت الابرة وتحسينهم اياه لبثوا مدة طويلة لا يبتعدون عن السواحل والسكندناويون قبلهم وصلوا إلى الارض الخضراء مقتحمين المحيط من غير ابرة فان هذا الفرق قد يرجع الى اختلاف خصائص الامتين ولا ينفى أن تكون

الابرة قد ساعدت فى اقتحام المحيطات وان يكون أخذ الاوربيين لها عن العرب افادهم فى كشوفهم فائدة كبيرة والاستاذ سينوبو يعترف أن البارود كان معروفا عند العرب قبل الأوربيين وان العرب كانوا يطلقونه من انابيب على اعدائهم وان العرب قد عثروا عليه أثناء ابحاثهم الكيمياوية واذا علمنا ان الكيمياويين من الاوربيين كانوا تلاميذ العرب وانهم كانوا يقرءون كتب العرب لم نستبعد ان يكون الأوربيون مدينين للعرب بالبارود وما نشأ عن استخدام البارود من المخترعات الحربية والعز والسلطان نعم انهم أخذوا مبادئ حسنوها حتى صارت أشبه بالنهايات ولكن كل غاية مردودة فى الفضل الى مبدئها وإن كان لمن اوصل المبدأ الى الغاية فضل كبير غير مجحود

اثر العرب فى نهضة الاصلاح الدينى

يزعم بعض المؤرخين ان نهضة الاصلاح الدينى نشأت اولا فى أمم اوربا الشمالية لاهتمام أهل الشمال بالامور الدينية وشدة شعورهم الدينى والذى دعا الى هذا الخطإ أن نهضة الاصلاح الدينى لم ترسخ الا فى تلك الامم الشمالية والحقيقة انها بدأت فى أمم البحر الابيض المتوسط الاوربية التى كانت اكثر اختلاطا بالعرب ولكن قياصرة البوزنطيين قضوا عليها فى بوزنطه كما تمكنت البابوية من القضاء عليها فى إيطاليا وقد قضى عليها ايضا فردناند وازابلا ثم شرلكان ثم فيليب الثانى فى اسبانيا

والحقيقة أن مبادئ نهضة الاصلاح الدينى ترجع الى العصر الذى عقب الحروب الصليبية وبدأت تظهر طوائف دينية فى أوربا الغربية مخالفة لمبادئ البابوية ولكن البابوية قضت عليها وان بقيت آثارها الى عهد نهضة الاحياء الكبرى وانا لنقرأ فى الكتب التى وصلت الينا من تلك العصور وصف خوف القساوسة من مخالطة الأوربيين للعرب أو التعلم فى مدارسهم أو قراءة كتبهم حتى انهم كانوا يتهمون من يخالط العرب أو يتعلم فى مدارسهم أو يقرأ كتبهم بالزيغ والضلال والكفر ولقد اتهموا البابا سلفستر نفسه الذى تعلم فى مدارس العرب كما اتهموا الامبراطور فردريك الثانى أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ولم يعد أحد من المؤرخين ينكر ماسببه اختلاط الأوربيين بالعرب وقراءة كتبهم من تغير نظر الاوربيين إلى الحقائق الدينية ولقد كان من نتائج اختلاط الاوربيين بالعرب ومجاورتهم لهم ان شاع مذهب (ايكونوكلاست) أى تهشيم التماثيل فى الكنائس وانتشر هذا المذهب أولا فى برزنطه لمجاورتها للعرب وسبب فيها فتنا كثيرة ثم انتقل الى غرب أوربا حتى صار مبدأ من مبادئ المصلحين .

واذا تتبعنا المبادئ التى تميز حركة الاصلاح وجدنا كثيرا منها يرجع الى تأثير اختلاط الأوربيين بالعرب ومعرفتهم عقائدهم